

مملكة هُرْمُز العربية المستقلة أو

بلاد السواحل وإجزائر

إبراهيم خوري °

نشأت في منطقة الخليج العربي وبحر عُمان مملكة أو سلطنة عربية مستقلة، بلغت أوج ازدهارها في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وما بعده، وشملت (٥٥):

- ١ - ساحل الخليج العربي الشرقي، وعلى امتداده، قسماً من ساحل بحر عمان الشمالي حتى السند
- ٢ - وساحل الخليج العربي الغربي، وعلى امتداده، جانباً من ساحل بحر عمان حتى رأس الحد
- ٣ - وجميع الجزر الواقعة بين ساحلي الخليج الشرقي والغربي، أو مقابل ساحل بحر عمان بين رأس مسندم ورأس الحد.

وبقيت تلك المملكة مستقلة عملياً، طوال وجودها، تفتدي حرية تصرفها بدفع مبلغ من المال، يسمى إتاوة أو «مُقَرَّرًا»، لكل سلطة تقوم في داخل البرّ المعجاور لها، وتثبت أركانها فيه ردحاً من الزمن، مما جعل بعض الباحثين يظنون، خطأً، أنها كانت، نظرياً، ملحقه بالحاكم المسيطر على مقربة منها.

(٥) باحث ومؤلف في علوم الجغرافية عند العرب - دمشق.

(٥٥) أطلب الخرائط في آخر المقال.

كذلك، قامت، طوال وجودها أيضًا، بدور الوسيط التجاري العالمي بين الشرق الأقصى، خاصة الصين، والشرق الأوسط، خاصة الهند، من جهة، وبين بلدان حوض البحر المتوسط الشرقية، لا سيما سورية ولبنان، والبلدان الأوروبية من جهة ثانية. فَجَنَّتْ أرياحًا طائفة، وجمعت ثروة ضخمة، مكنتها من تجهيز قوّة مسلحة احتياطية رادعة، سمحت لها بإفشال محاولات القضاء على استقلالها طوال ثلاثة قرون ونيّف.

فما هي هذه المملكة؟ وما هو اتّساعها الأرضي؟ وما هو دورها في التجارة الدولية بين المحيط الهندي والبحر المتوسط؟ هذا ما سوف نستعرضه بإيجاز بعد إعطاء نبذة مقتضبة عن جذورها التاريخية القديمة.

أولًا - مملكة هُرْمُز وجذورها التاريخية القديمة

في البدء، قامت مدينة هرمز، عاصمة المملكة الأولى، على البرّ، على رأس جون نهر أناميس (ميناب)، ثم انتقلت إلى جزيرة جرون أو زرون، وأطلق اسم هرمز العتيقة أو القديمة أو الساحلية على المدينة الأصلية، واسم هرمز الجديدة على المدينة المنشأة حديثًا. ودعت مملكة هرمز سلطنة هرمز، أو، بحسب الأزمنة، بلاد السواحل أو بلاد السواحل والجزائر أو البلدان البحرية، وأحيانًا «المعبر» بلا تمييز بينها وبين المعبر القريب من سرنديب أو سيلان، أو هرمز أو هراميز باختصار، كما عند أحمد بن ماجد. ووردت جميع تلك التسميات في المصادر الإسلامية والفارسية. أما المصنّفون العرب، فتحدّثوا عنها أيضًا. ونحن نذكر منهم على سبيل المثال الشريف الأدرسي المتوفى ٥٦٠ هـ/١١٦٤م)، وياقوت الحموي (متوفى ٦٢٧ هـ/١٢٢٩م)، وأبا الفداء (٧٣٢ هـ/١٣٣١م)، وابن بطوطة (٧٧٩ هـ/١٣٧٧م).

فقد جاء في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق^(١) «ومن مدن كرمان،

(١) الطبعة الإيطالية، ص ٤٣٦ / ٢-١١ .

مدينة هرمز الساحلية... وهي فرضة كرمان. وهي في ذاتها مدينة كبيرة، كثيرة العمارة، كثيرة النخل، حارة جدًا. ويُزرع بنواحيها الكُمون الكثير، والنبيلج الذي إليه المنتهى في الطيب، المضروب به المثل. وينجذب به منها إلى كل الآفاق. ومدينة هرمز على خليج يسمّى الجير... تدخل فيه السفن من البحر إلى المدينة».

وتضمّن معجم البلدان ما يلي^(٢): «هرمز... مدينة في البحر، إليها خور، وهي على ضفة ذلك البحر... وهي فرضة كرمان. إليها تُوقأ المراكب، ومنها تُنقل أمتعة الهند إلى كرمان وسجستان وخراسان. ومن الناس من يسميها هرموز، بزيادة الواو».

وذكر تقويم البلدان^(٣) أن «هرموز فرضة كرمان. وهي مدينة كبيرة، كثيرة النخل، شديدة الحرّ. وأخبرني من رآها في زماننا هذا أن هرموز العتيقة خربت من غارات التتر، وأن أهلها انتقلوا عنها إلى جزيرة في البحر، تسمى زرون. وهي جزيرة قريبة إلى البرّ، غربي هرموز العتيقة. ولم يبقَ بهرموز العتيقة إلا قنيل من أطراف الناس. وزرون قبالة عمان... ومن هرموز إلى أول حدّ فارس نحو سبع مراحل. ومن المشترك: هرموز مدينة بأقصى كرمان، يدخل إليها المراكب بن بحر الهند في خليج».

ووصفت هرمز في رحنة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وقيل عنها فينا^(٤): «وهرمز مدينة على ساحل البحر تسمى أيضًا سوغ استان، وتقابلها في البحر هرمز الجديدة. وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ. ووصلنا إلى هرمز الجديدة، وهي جزيرة مدينتها تسمى جرون... وهي مدينة حسنة كبيرة، لها أسواق حافلة، وهي مرسى الهند والسند. ومنها تحمّل سلع الهند إلى العراقيين وفارس

(٢) طبعة صادر، ج ٥، ص ٤٠٢، ص ١٧-٢٥.

(٣) طبعة ١٨٤٠، ص ١٣٩/١-٥.

(٤) طبعة بيروت، ص ١٩/٢٨٠ إلى ٩/٢٨١.

وخراسان. وهذه المدينة سكنى السلطان. والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم، وأكثرها سباخ وجبال ملح، وهو الملح الداراني، ومنه يصنعون الأواني المزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها. وطعامهم السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة وعمان... وللماء في الجزيرة قيمة. وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر. وهي على بعد من المدينة».

ويمكن تتبع تاريخ هرمز إلى عصر بطلميوس، وحتى إلى زمن إسكندر ذي القرنين. فأريانس، المؤرخ اليوناني الشهير، ألف كتاباً عنوانه حملة إسكندر المقدوني الحربية (L'Anabasis). قال فيه إن نيازخس، أمير بحر الإسكندر، أرسى مراكب أسطوله في مصب نهر أناميس (ميناب) في بلاد تدعى هرموزيا (Harmozeia) قبل أن يتوغل في الخليج العربي، ويستكشفه في طريقه، وهو ذاهب إلى سوس في الشمال. كذلك ذكر بطلميوس مدينة هرمز باسمها في جغرافيته: Ἀρμουζα πόλις. وزارها في عهد أقرب من رحالة أوربيون كثر، منهم ماركو بولو، وأودوريك، ونيكيتين. كل ذلك يدل على أن هرمز قديمة، وأن أهميتها استرعت الانتباه على مرّ العصور، وتطوّرت على مدى ألفي سنة، من أيام الإسكندر إلى القرن السابع عشر حتى أصبحت مملكة مستقلة تضم أصقاعاً متباعدة، ورفعة أرضية واسعة في البر والبحر.

ثانياً - اتساع مملكة هرمز في البر والبحر

ضمّت مملكة هرمز أراضي شاسعة متصلة بالبر القارّي أو منفصلة عنه وموزعة في الخليج العربي أو مقابل ساحل سلطنة عمان الحالية، عبّرت عنها أحسن تعبير تسميتها «بلاد السواحل والجزائر»، لآتيا أبانت آتيا تمتلك سواحل الخليج وساحل كرمان حتى السند، مع واجهة عمان البحرية الحالية، يضاف إليها جميعاً جزر كبيرة وصغيرة، معمورة أو خالية من البشر، متشرة في اليم بين الساحلين الشرقي والغربي، على مقربة أو على بعد منهما.

وقد لخص دوازيه برؤوسه هذا الوضع تلخيصًا جيدًا في كتابه القِيم، المسمّى كتاب دوارنه بربوسه، ترجمه حرقًا لأهميته البالغة. قال (٥):

آ - مملكة هرمز في جزيرة العرب

«بعد صور، يتوالى العديد من القرى المسلمة الصغيرة على طول ساحل بحر الهند في جزيرة العرب. ويقطن في الداخل، خلف الساحل، العديد من القبائل العربية. ويستمر وضع الساحل والداخل البشري على هذه الحال حتى رأس الحد، الذي تبدأ عنده مملكة هرمز وسلطتها. وهنا تقوم قلعة تعود إلى ملك هرمز، وتسمى قلعة صور. وينعطف الشاطئ بعدها، ويأخذ بالاتجاه نحو موقع جزيرة هرمز.

وتكثر القرى والحصون التابعة لسلطان هرمز على الساحل العربي^(٦)، وتدوم حتى مدخل الخليج. وسيطر هذا السلطان على العديد من المعاقل والمدن، وعلى الكثير من الجزر التي تقع في الخليج المذكور، على مقربة من الجانب العربي، وبتوسطها مسلمون من علية القوم. ويعين فيها ولاة وجباة تجبي له الضرائب. وتعاقب تلك المدن على الوجه التالي:

أولاً قليات. وهي مدينة مسلمة كبيرة، منازلها رائعة وحسنة

(٥) ج ١، ص ٦٧-٨٧ و ٩٠-١٠٥. ودوارنه بربوسه كان موظفًا في الإدارة البرتغالية في الهند من عام ١٥٠٠ إلى عام ١٥١٧، وقد نُشر كتابه مترجمًا إلى الإيطالية في البندقية سنة ١٥٦٣، ونشر بالبرتغالية عن إحدى مخطوطاته سنة ١٨١٣، كما نشر بالإنكليزية سنة ١٩١٨ ترجمه سنل لونغفورت ديمس، نائب رئيس الجمعية الآسيوية الملكية والمعهد الملكي للأنتروبولوجية. وديمس معروف في الأوساط العلمية ومحترم رأيه ويؤخذ بحواشيه لأنه خبير في بحر الهند وتاريخه، وهو أحد القائلين بأن سلطنة هرمز عربية، في حين يقول الإيرانيون إنها فارسية.

(٦) كانت السلطنة المسلمة سلطنة هرمز إمارة عربية مرتبطة، في تلك الحقبة، بمملكة فارس الصفوية الحديثة للمهد. وكانت تمتد على ساحل جزيرة العرب من حدود حضرموت إلى عمان، فمضيق هرمز، فجنوبي الخليج (حاشية للمترجم ديمس).

البناء، ويقوم فيها العديد من أصحاب الحوانيت وتجّار الجملة وغيرهم من الأثرياء.

تليها، بعد تجاوزها، مدينة أخرى تسمى طيبي. وهي ليست كبيرة جدًا. لكن لدينا مياه وافرة تقصدها السفن الجارية في تلك البحار لتستعذب منها.

ثمّ مدينة أخرى على الساحل، ليست بعيدة جدًا، تدعى القريات، يعمرها أناس أثرياء يروّجون لسلع تجارّتها مزدهرة. وهنا في أماكن قريبة منها، تكثر الأغذية والخيول الممتازة جدًا، التي تربى فيها، ويأتي مسلمو جزيرة هرمز لشراؤها وأخذها لأنفسهم أو لتصديرها إلى الهند.

ومنى تجاوز المرء مدينة القريات، يصل إلى مدينة أخرى يسمونها «إيتم»^(٧)، فيها قلعة لسلطان هرمز.

وبعد هذه القلعة مباشرة، تقوم مدينة تدعى مسقط، يسكن فيها كثير من أصحاب المكاثة الرفيعة، وتتميّز بتجارّتها العظيمة وبمصايد سمكها الواسعة إلى أقصى حدّ، التي يصاد منها سمك وافر وكبير يملح ويجفف. وتباع هذه الأسماك إلى بلدان عديدة.

وبعد المرور بمسقط، والاستمرار بالاتّجاه نحو جزيرة هرمز، تصادف، على الساحل، مدينة أخرى، يقال لها صحار، تليها مدينة أخرى تسمى «التارسكة»^(٨)، فيها قلعة رائعة عائدة إلى سلطان هرمز، الذي يحتفظ بها ليتمكّن من الانطلاق منها لقمع ثورة الأماكن الأخرى عليه.

ثمّ تأتي قلعة تدعى «مايل»^(٧) بعد قلعة انتارسكة، وتليها قرية صغيرة تسمى خورفكان تحيط بها باتين ومزارع كثيرة يمتلكها مسلمون من عليّة القوم، يتزّهون فيها، ويجنون ثمارها ومحاصيلها.

(٧) لم يتوصل الباحثون العرب ولا المستشرقون إلى تحديد مقابلها على ساحل عُمان.

(٨) مكنا كَب إِمْلَمَا بعضُ المستشرقين.

ومتى تعدى المرء قرية خورفكان، يصل إلى قرية تدعى جلفار، يقطن فيها قوم أثرياء وبخارة ماهرون وتجار جملة. وقربها تقع مصايد سمك واسعة جداً، تكثر فيها مفاصات اللؤلؤ الصغير والكبير. ويأتي إليها مسلمو جزيرة هرمز لشراء اللؤلؤ وحمله إلى الهند وإلى بلدان عديدة أخرى. وتدّر تجارة جلفار واردات هائلة على سلطان هرمز، الذي يجني دخلاً عظيماً من جميع المراكز البشرية الأخرى أيضاً.

وتتوزع قرى أخرى على طول الساحل وراء خورفكان، منها قرية رأس الخيمة التي تقع خلفها كلبا. وفي هذه الأخيرة، أشاد سلطان هرمز قلعة لحماية ممتلكاته، لأنّ مسلمين كثيراً شبيبين بالأعراب الخاضعين لحكم إسماعيل شاه يعيشون في أراضي ممتدة في الداخل وراء أراضيه، وينطلقون منها، فيغيرون على قراه، ويقاتلونها، ويخرجون عن طاعته.

ب - مملكة هرموز في فارس

«ويمتلك سلطان هرمز نفسه قرى عديدة وأراضي عامرة، على طول ساحل فارس. وسوف أستعرضها هنا إفرادياً، ثمّ أتحدّث عن جزيرة هرمز، وعن المدينة القائمة فيها وعن السلطان وعاداته.

فعلى ساحل فارس، المتّجه نحو الهند، يسيطر سلطان هرمز على مدينة هامة تسمى ييام^(٩)، أهلها قوم جلّة. وهي مُركز وولاته الذين يجمعون له منها واردات ضخمة. وتليها مدينة أخرى تقع على الساحل أيضاً، وتدعى ديفكسار^(٩)، ثمّ مدينة أخرى تعرف باسم سكيون^(٩).

وتعقبها، على الساحل أيضاً قرى صغيرة كثيرة، منها نابند، التي تحمل منها سفن صغيرة، تدعى طراة، كمّيات كبيرة من الماء العذب، وتنقلها إلى جزيرة هرمز لتزويد مدينتها بمياه الشرب، لأنّ هذه الجزيرة محرومة منها. كذلك، لا بدّ أن يحمل إلى هرمز من نابند ومن محالّ أخرى، شتى أنواع الأغذية واللحوم والثمار، وأن تعرض فيها بكمّيات

(٩) النقاش طويل ومهبط حول هذه الأسماء والأسماء التالية، لا لزوم لذكره هنا الآن.

وافرة. وتأتي بلدة غاندا بعدها. ومن هنا تتابع محال كثيرة، يمتلكها سلطان هرمز، أعني... (هنا تذكر ١٣ محلّة تتوزع على ساحل جزيرة العرب من البحرين إلى شطّ العرب، وعلى ساحل فارس من شطّ العرب إلى لنجا). وتتشرب بين هذه المحالّ قرى أخرى تجارتها نشيطة رغم صغرها. ولن أشرحها هنا لأنّي لم أحصل على أخبار موثوقة عنها. فأكتفي بالقول إنّها جميعها عامرة وأهلها أثرياء، وأنّ تجارًا مليّين يقيمون بينهم.

ويملك سلطان هرمز قلاعًا كثيرة أيضًا، يستخدمها في الدفاع عن سلطته من ناحية البرّ. وجميعها على الساحل الفارسيّ، مزوّدة جيّدًا بمقادير كبيرة من اللحم والقمح والشعير وشتى الثمار والأعشاب والتمور المعروفة في تلك الأماكن. وبشرة جميع الناس جميلة في تلك المحالّ رجالاً ونساءً، وهم مهذبون. ويرتدون ثيابًا طويلة قطنية وحريرية، وثيابًا أخرى مصبوغة بالقرمز ومصنوعة من الوبر. وكلّ هذه الأراضي غنيّة جدًا.

ج - جزر مملكة هرمز

«تقع الجزيرة الحاليّة التي تقوم عليها مدينة هرمز بين ساحليّ جزيرة العرب وفارس، عند مدخل الخليج العربيّ. وتتشرب في هذا الخليج جزر كثيرة يمتلكها سلطان هرمز، وتخضع لحكمه. وهي التالية:

أولاً تسم، وهي جزيرة كبيرة، خصبة، يؤخذ منها إلى هرمز الكثير من الفواكه الطازجة والأعشاب الطيبة والعطريّة. وتضمّ أرضها قرى كبيرة.

ثمّ جزيرة أخرى تدعى هندرابي، وأخرى بوشير، ولارك، وطعب، وفرور. وتأتي بعد جزيرة فرور جزيرة كبرى تسمّى البحرين، يقيم فيها تجار كثر وأناس أجلاء غيرهم. وموقع هذه الجزيرة جيّد في وسط الخليج، فتقصدها سفن عديدة حاملة إليها كمّيات كبيرة من السلع.

ويعثر في المياه حولها على كثير من اللؤلؤ الصغير والكبير، الممتاز أيضاً. ويعنى تجار البحرين أنفسهم بالغوص على هذه اللآلئ، ويجنون منه أرباحاً طائلة. ويأخذ سلطان هرمز من البحرين مقادير ضخمة من الواردات والضرائب. ويجيء إليها تجار هرمز لشراء اللآلئ الصغيرة والكبيرة، وينقلونها إلى الهند، ويسعونها هناك، ويربحون كثيراً من هذه المبيعات. ويقصد هؤلاء التجار مملكة نارينغا وأرجاء جزيرة العرب وفارس لشراء اللآلئ أيضاً. ويعثر على هذه اللآلئ وعلى الصغير منها في جميع أنحاء الخليج من البحرين إلى جانب هرمز الداخلي. إلا أنها تتوفر بكثرة في البحرين».

د - مدينة هرمز العظيمة

«إذا عبر المرء مضيق هرمز متوغلاً في الخليج، وجد قرب مدخله جزيرة صغيرة الحجم (جرون)، تقوم عليها مدينة هرمز التي لا تبدو كبيرة بقدر ما هي جميلة، بمنازلها الشامخة المبنية بالحجر والملاط، المسطحة السقف، والكثيرة النوافذ. ولتحاشي حرّ هذه الجزيرة الشديد، شيدت جميع بيوتها بطريقة تجعل الهواء يتدفق عند اللزوم من طوابقها العليا إلى السفلى. وموقع هذه المدينة جيد جداً. وفيها شوارع وكثير من الساحات العامة. ويتصب بجوارها تلّ فيه ملح وبعض الكبريت. ويشكل الملح كتلاً تضاهي الصخور الكبيرة في نلال جلمدة. ويسمى هذا الملح الملح الهندي، يؤخذ مباشرة عن وجه الأرض، عندما يكون ناصع البياض وناعماً.

ونشترى جميع السفن القادمة إلى هرمز هذا الملح لحفظ توازنيا، لأنه سلعة ثمينة مطلوبة في أماكن عديدة. وتجار هذه المدينة عرب وفرس. ويتكلم الفرس اللغة العربية ولغة أخرى تسمى الفارسية. وهم طوال النامة بحسن وبناء، وصحة وأناقة، رجالاً ونساءً. وهم شجعان ويعيشون في رخاء، ومسلمون يرفعون عالياً شأن الإسلام. لكنهم يساهلون في عدة أمور، حتى إنهم يقتنون غلماناً لأغراض بغيضة.

وجيدون الموسيقى، ولديهم آلات عزف متنوّعة. أما العرب، فبشّرتهم
داكنة وهم أقرب إلى السمرة.

ويقطن تجار أثرياء في مدينة هرمز. وفيها كثير من المراكب الكبيرة
جداً. ولها ميناء جيّد جداً، يتاجر بشّى أنواع البضائع المحمولة إليه من
جهات عديدة. ويقايضها بسلع كثيرة جداً من أرجاء الهند ويستورد
تجارها التوابل بأنواعها، وأصنافاً أخرى أي الفلفل، وكبش القرنفل،
والزنجبيل، وحبّ الهيل، والألوة، والصندل، وخشب البرازيل،
والأهليلج، والتمر الهندي، والزعفران، والنيلة، والشمع والحديد
والسكر والأرز (بمقادير هائلة) وجوز الهند، وكمّيات وافرة من الحجارة
الكريمة، والخزف، واللبان. ويجنون أرباباً طائلة من بيع جميع هذه
السلع. وعندهم أيضاً كثير من أكسية كمباية وشول ودابول. ويجلبون من
البنغال موسلين سباقوس رقيقاً، وهو قطنيّ رقيق جداً ومرغوب جداً
عندهم لصنع العمائم والقمصان. ويحمل إليهم من عدن النحاس والزئبق
والزنجفر وماء الورد والياب المطرّزة والتنتة وقماش الوير. ويأتيهم من
ممتلكات إسماعيل شاه مقادير كثيرة من الحرير والمسك الجيّد جداً
وراوند بابل. وتزوّدهم البحرين وجلنار باللآلئ الصغيرة والكبيرة،
ومدن جزيرة العرب بكثير من الخيول التي ينقلونها إلى الهند بأعداد
كبيرة، تبلغ ألف حصان وألفين في بعض السنين، يباع الواحد بحوالي
ثلاثة أو أربعة آلاف كروزيروس، حسب الطلب عليها. وتوسق السفن،
الناقلة الخيول، بكمّيات وافرة من التمور والزيب والملح والكبريت،
واللآلئ الصغيرة المرغوبة عند مسلمي نارسنغا.

ويخرج مسلمو مدينة هرمز مرتدين جلايب القطن الناصعة
البياض، الرقيقة جداً والطويلة، وتحتها سراويل القطن. ويلبسون أيضاً
ثياباً حريرية نفية وغيرها من الخملات المصبوغة بالقرمز. ويتمنطقون
بالمآزر ويحملون فوقها خناجرهم المعقوفة المزينة بدقّة بالذهب والفضّة
حسب منزلة الشخص. ويحملون أيضاً تروساً عريضة مستديرة ومغطاة

بالحرير الناعم، ويمسكون بأيديهم أقواسًا تركية ملونة بألوان رائعة (لها أوتار حرير) يرمون بها رميات بعيدة جدًا. ويصنعون هذه الأقواس من خشب مصقول بالبرنيق ومن قرن الجاموس. ويحمل بعضهم قووسًا صغيرة ودبابيس حديد لها أشكال متنوعة، مزخرفة بالرسوم الدمشقية المتموجة المنمنمة.

وأمثال هؤلاء الرجال أثرياء ومهذبون ولهم أناقة. ويولون لباسهم عناية فائقة. وكذلك غذاؤهم الذي يبتر جيدًا جدًا ويتوفر بكثرة، ويشمل اللحم وخبز القمح والأرز الجيد جدًا، والمبخرات المتنوعة، والفواكه الطازجة، والتفاح والرمان والدراق وكميات كبيرة من المشمش والتين واللوز والعنب والبطيخ، والفجل، وخضار السلطة التي لها مثيل في إسبانية، وأنواع التمور والثمار غير المعروفة في إسبانية. وهم يشربون خمر العنب سرًا، لأن دينهم يحظر شربها. ويمزجون ماء شربهم بقليل من صمغ المصطكي، ويضعونه في مكان بارد، يستعملون طرقًا عديدة لتبريده وحفظه باردًا.

ويأخذ هؤلاء النبلاء والتجار الكبار معهم حشما يذهبون، على الطرقات، وفي الأماكن العامة أو الشوارع، غلامًا يعمل في خدمتهم، ويحمل برميل ماء صغيرًا (كينغ) أو قنينة ماء مزخرفة بالفضة، يظهرونها في العرض والاستعراض وفي طريقة حياتهم المترفة. وتكره النساء هذه الفئة من الناس كرهًا عظيمًا، لأن معظمهم يصطحب معه عبيدًا من غلمان الخصيان ويضع معهم.

ويمتلك هؤلاء المسلمون من أصحاب المناصب الرفيعة منازل رفيعة على البرّ الرئيس، يذهبون إليها بخاصة في فصل الصيف، ويلهون فيها.

ومدينة هرمز غنية إلى أقصى حد، ومزودة جيدًا بشئ أصناف الطعام، إلا أن الحياة فيها عالية جدًا، لأن كل شيء يأتيها من خارجها، أي من جزيرة العرب وفارس ومن أماكن أخرى توصل إليها جميع

الحاجات بسرعة. ولا يمكن أخذ شيء من الجزيرة ذاتها (جرون) ما عدا الملح.

وحتى ماء الشرب يجلب إليها من خارجها، من الجزر الرئيسة ومن الجزر التريية منها، نقلًا بسفن صغيرة يسمونها طرادات، كما قلت من قبل. وتكثر في ساحاتها العامة جميع السلع بموزونة بأسعار محددة بتواعد دقيقة جدًا. ويجازى بصرامة شديدة كل من لا يقي الميزان ويخالف الأسعار المفروضة والأوامر المعطاة بشأنها. ويسعون للحم مطبوخًا أو مسلوقةً أو مشويًا وبالوزن، وكذلك أصناف الطعام الأخرى. ويعد الطعام بحسب الأصول ونظافة، حتى إن أناسًا كثيرين لا يطبخون في بيوتهم، بل يشترون غذاءهم من البازار.

وفي مدينة هرمز يقيم سلطانها على الدوام وفي أحد القصور الكبيرة التي يمتلكها قرب البحر، والمقامة على أحد الرؤوس الطبيعية. ويحفظ بكنوزه فيه. ويعين ولده وجباة ضرائبه في مدن ساحل فارس ومدن ساحل جزيرة العرب وفي جزر الخليج العاتلة لسلطته، مثلما أشرت من قبل. وللسلطان في مدينة هرمز والى عام يحكمها ويحافظ على تطبيق القانون فيها. وهو أعلى من جميع ولاة السلطنة الآخرين، ويأمرهم.

ويحفظ هذا الرالي العانة بالسلطان على مقربة منه في القصر المذكور، ضمن حصن مخصص لهما. ولا يحكم السلطان من هذا الحصن، ولا يعرف شيئًا عن السلطنة، لكنه يُخدم جيدًا ويحرس جيدًا. أما إذا أراد السلطان أن يتدخل في شؤون الحكم والمخزينة، أو رغب في الحصول على حرّيته، فإنه يُنقل من الحصن، ويُقتضى على بصره، ويوضع في منزل خاص هو وزوجته وأنجاله إن كان له أولاد، ويُبلى ببلية عظيمة، ولا يُقدّم له سوى الطعام. ثم يُؤخذ شاب من الأسرة المالكة، مثل نجله أو شقيقه أو ابن أخيه أو أحمق أنسابه بالملك،

ويوضع في الحصن والقصور المشار إليها سابقاً، ويصبح سلطان حرمز الجديد، لكي يتسنى للولاة أن ينظّموا السلطنة ويحكموها باسمه بلا نزاع ويسلام تام. ومتى كبر باقي ورثة السلطان، وبلغوا سنّاً تخوليم تسلّم زمام الأمور، يأخذ الوالي العام كلّ من تراوده نفسه منهم بالتدخل في شؤون السلطنة، ويقضي على بصره، ويضعه في منزل فاقد الرؤية، الذي يحوي باستمرار ما يتراوح بين عشرة واثني عشر من السلاطين العميان. ويخشى كلّ سلطان وهو في السلطنة أن يلقي المصير ذاته. ويظلّ رجال مسلّحون، مشاة وخيالة، يراقبون السلطان ويحرسونه، ويُدفع لهم مرتبات ضخمة. ويذهبون إلى البلاط مدججين بالسلاح على الدوام. ويُرسَل بعضهم قيمين على مناطق السلطنة على البرّ الرئيس متى اقتضت الحاجة.

وتُسكُّ عملة ذهبية وفضية في مدينة هرمز. وتسمى العملة الذهبية الأشرفيّة. وهي مستديرة مثل عملتنا. وتسبك من الذهب الجيد جداً، وتنقش أحرف عربية على وجهيها، وتساوي حوالي ثلاثمائة ريس. وممّظم العملة الذهبية أنصافُ أشرفيّ، يعادل النصف منها مائة وخمسين ريس. أمّا العملة الفضية، فمتطاوله مثل حبة الفاصوليا، وقد نُقشت أحرف عربية على وجهيها، وتساوي القطعة الواحدة منها حوالي ثلاثة فتحات، ويسمونها تنفاً، وفضتها نقيّة جداً. والعملتان الذهبية والفضية متوقّرتان بكثرة في مدينة هرمز، حتّى إنّ أصحاب السفن القادمة إليها محمّلة بالسلع، يستطيعون أن يقبضوا ثمن بضائعهم بهما، وأن يشتروا بهما انخيول وغيرها ممّا يريدون حمله معهم، وأن يأخذوا معهم ما يزيد من النقود إلى اليند لأنّها متداولة فيها وقيمتها عالية هناك.

ثالثًا - دور مملكة هرمز في التجارة الدولية بين المحيط الهندي والبحر المتوسط

استعملت بلدان البحر المتوسط التوابل، لا سيما القفل، منذ القرن الثالث قبل الميلاد، في عهد البطالسة. وكانت تلتقأها من عرب جزيرة العرب دون أن تعرف مصدرها الحقيقي. وفي زمن الأمبراطورية الرومانية، كانت المراكب، بعدد يبلغ سنويًا الـ ١٢٠ مركبًا بحسب إسترابون، تغادر مصر، وتسلق البحر الأحمر الحالي، ذاهبة إلى فلبار، لتجلب القفل من هذه المقاطعة الهندية إلى القلزم أو القصير، ثم تنقله القوافل إلى داخل مصر ليستهلك محليًا أو يصدر من الإسكندرية إلى رومة. كذلك نشطت طريق الهند عبر الخليج العربي في أيام أذينة وزوجته زنبويا. وكانت السفن تقطع الخليج، وتذهب إلى خاركس في العراق، وتصعد في نهر الفرات، ثم تنقل حمولتها بالقوافل إلى تدمر، فدمشق أو حلب، ومنهما إلى طرابلس الشام أو جزيرة أرواد.

وفي القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، برزت أهمية الخليج العربي في إيصال التوابل وغيرها من السلع إلى البصرة، فحلب، فمدينة طرابلس الشام. وقد ذكر أحمد بن ماجد في كتاب للقوائد^(١٠) أنه ولىح في ثلاثة مراكب من هرموز إلى جدّة وكانت حمولة الواحد منها تزيد على ألف بيار. وهذا يعني أن مملكة هرمز كانت تنشط طريق الخليج بصورة أساسية، وطريق البحر الأحمر أحيانًا.

وهكذا أصبح البحر الأحمر والخليج العربي على مرّ الأيام طريقي ما اصطلح على تسميته «التوابل المتوسطية» التي تقابلها «توابل الطريق الغربية» عبر المحيط الأطلسي» بعد دوران فاسكو داغاما حول رأس الرجاء الصالح ووصوله إلى الهند سنة ١٤٩٨م/ ٩٠٤هـ. وكانت مدينة لشبونة في البرتغال سوق التوابل الأطلسية، وجمهورية البندقية سوق التوابل المتوسطية.

(١٠) ص ٢٢١-٢٢٢ من الطبعة الثانية.

ونشب صراع تجاري مرير، آثار أزمات اقتصادية في العديد من الدول الأوربية، وأدى إلى حصول حروب لثيت تفوق إحدى الطرفين، القديمة أو الجديدة، على الأخرى. ودام هذا النزاع حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي/ الثالث عشر الهجري. لكن كانت حدته قد خفت، وأهمية التوابل قد تدنت قبل هذا التاريخ، لانتشار زراعتها في أماكن أخرى من أفريقية وأمريكا الجنوبية، ولاكتشاف وسائل جديدة للتبيل وحفظ المأكّل أو الحصول عليها طازجة.

يتضح من هذا العرض السريع أنّ الخليج العربيّ قام بدور أساسي في التجارة العالمية. بالتالي، تمتعت مملكة هرمز، منذ قيامها، بمكانة مرموقة في تبادل سلع الشرق، ونقلها بسفنها أو السماح بنقلها، لقاء تقاضينا رسومًا، بسفن الفير، عبر مياهها الإقليمية، حتى العراق. ومن العراق، تُنقل، بقوافل إيل إلى حلب، فطرابلس الشام، وأحيانًا إلى إسكندرونة أو إلى بيروت.

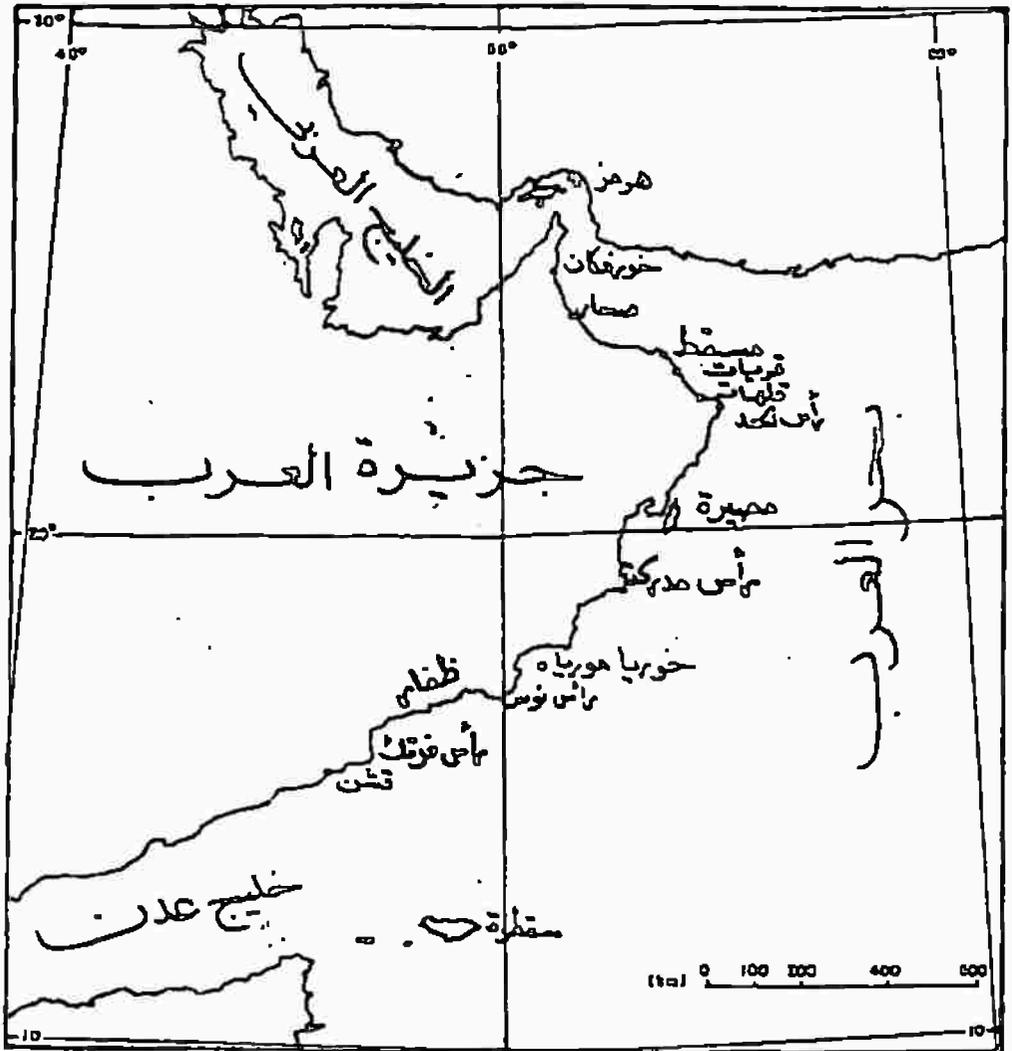
وفي جميع الأحوال، تبيّن من تطوّر مبيعات التوابل في الأسواق السورية اللبانية والأوربية، ومن تزويد سورية ولبنان الأسواق الأوربية بسلع الشرق، ومن تقلبات الأسعار العالمية، أنّ طريق الخليج ظلّت متعشة ومزدهرة على الدوام، لأنّ ورود توابلها وحطبها وغيرها من البضائع إلى المراكز السورية اللبنانية لم ينقطع، وإن كان يخفّ في بعض الظروف، لا سيّما عند نشوب حروب محلية. وتثبت الوراثة التاريخية استمرار نشاط طريق الخليج العربيّ حتى بعد وصول البرتغاليين وغيرهم من الأوربيين إلى بحر الهند وإلى بلدانه الساحلية.

من ذلك وثائق مدينة مرصية التي تتحدّث عن شراء جوز الطيب من سورية في صيف عام ١٥٧٨م، ورسالة تجارية خارجة من حلب في شير كانون الثاني سنة ١٥٧٩م، ذكرت أنّ مركبين بندقيين حملتا من مدينة طرابلس سلعة قيمتها نصف مليون دوكا لكلّ منهما، وأنّ مركبًا ثالثًا راسيًا في قبرص يتظر دوره ليقتصد ميناء طرابلس الشام. وأعلنت رسالة

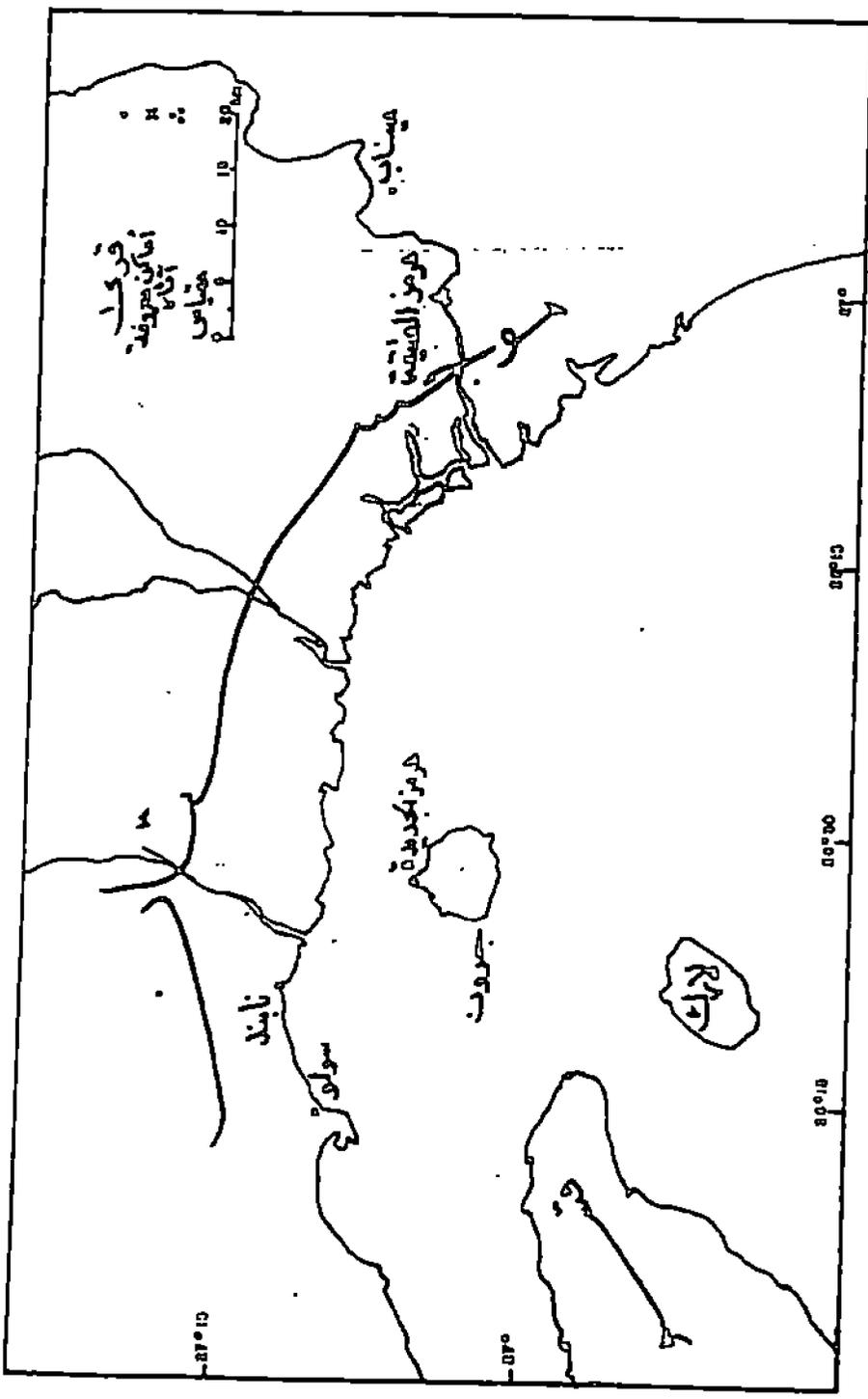
تجارية أخرى صادرة من حلب أيضًا بتاريخ ١٢ أيار ١٥٧٩، أنّ قافلة كبيرة معها تجارها وصلت إليها، جلبت لها ماتي حمل من الحرير و٢٥٠ حملًا من التوابل. وفي ١٠ نيسان عام ١٥٨٣، كتب تاجر من مرسلية يقول إنّ أسعار التوابل ارتفعت جدًا في حلب رغم وجودها بكثرة. وفي العام ذاته قال جوهن الدريد إنّ التجار الأوربيين يرتادون طرابلس دون المرافئ الأخرى، وأنّ حلب مكثّفة بالسكان، وتقوم بينها وبين بغداد تجارة مرور نشيطة جدًا. وألمح إلى وجود ٢٥ سفينة جربية تركية في ميناء البصرة، التي تأتي إليها عدّة سفن تجارية من مملكة هرمز، تتراوح حمولتها بين ٤٠ و٦٠ طنًا، قادمة من الهند أصلًا وموسقة بسلعها من توابل وعقاقير ونيلة وأنسجة كاليكوتية. وفي سنة ١٥٨٤م، أخبر جوهن الدريد نفسه أنّه عاد إلى حلب في قافلة مؤلفة من ٤٠٠٠ جمل، محمّلة بالتوابل وغيرها من السلع الثمينة.

وفي سنة ١٥٩٣، حلّت الإسكندرون محلّ طرابلس التي كثر فيها إزعاج المراكب. والإسكندرون أقرب إلى حلب، إلا أنّ مستودعاتها ضيقة، لا تستوعب تخزين كلّ السلع. مع ذلك تجاوزت مبيعاتها من جوز الهند والنيلة وكبس القرنفل وغيرها مبلغ ثلاثة ملايين ليرة ذهبية في بعض السنين.

وحكذا نرى أنّ طريق الخليج بقيت سالكة حتى في الأيام العصيبة، وأنّ علاقات مملكة هرمز التجارية ببلاد الشام قديمة، استمرت وثيقة خلال ثلاثة قرون، لم تضعف فيها إلا ضعفًا طارئًا ناشئًا عن حرب محلّية موقّنة.



شكل ١ - إمتداد مملكة هرمز في الخليج العربي وبحر العرب حتى رأس الحد



شكل ٣ - هرمز المتلة وهرمز الجديدة

صدر حديثاً عن دار المشرق



يصدر قريباً

